شق صدر المصطفى ﷺ

و حكمته و أثره على قلبه الطاهر

إعداد الدكتورة

سحر محمد محمد عزت حسين

أستاذ مساعد الحديث وعلومه بجامعة الأزهر

مُقَدِّمَة

الحمد لله العظيم ، حمداً يوافي نعمه ، و الشكر لله الجليل ، شكراً يواكب كرمه .

فقد شرفنا ﷻ بدين الإسلام ، فأصبحنا مسلمين ، و مَنَّ علينا بأكرم رسله ﷺ ، فأمسينا له تابعين مجيبين .

و الصلاة و السلام على أكرم خلقه ، النبي المرسل و العلم الذي اهتدينا به ، أرفع خلقه ، الذي أنبأ عن الله ، فارتفع قدره ، و علا ذكره ، شَرَّفَهُ على سائر الخلق بالنبوة و الرسالة ، و سقها بمعجزات و إرهاصات ، تأسيسا و تثبيتا لها .

و محمد ﷺ من الشخصيات التي أبهرت العقول : و شغلت القلوب بمحبته ما لم تنشغل بغيره من البشر.

فلم يحظ نبي باهتمام البشر ، مثلما حظي سيدنا محمد ﷺ و لم يُهْتم بما جاء به نبي مرسل ، مثلما اهتُمّ بما جاء به محمد ﷺ ، و لو قضى المسلمون و المسلمات – المحبين لنبيهم – في دراسة ما جاء به من شرع الله أو مناقشة ما اختص به من معجزات و كرامات ، لانقضى عمر الباحثين و لم يوفوه حقه ، و لا المكانة التي تليق به ، لذا فنحن نتلمس بعضا من سيرته العطرة ، لنكتشف عظيم حب الله لنبينا رحمة الله للعالمين ﷺ و اصطفائه له و عنايته به .

و قد نتساءل هل هناك فرق بين المعجزات و الإرهاصات أم أنهما اسمان لشيء واحد ؟

و الإجابة : أن هناك فارق بين المعجزة و الإرهاص :

فالمعجزة : هي الأمر الحارق للعادة يظهره الله على يد نبي تأييداً لنبوته، و يعجز البشر أن يأتوا بمثله[1]، كانشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ بمكة ، و نبع

---

(١) المعجم الوسيط ٥٨٥/٢ ، لسان العرب ٣٦٩/٥ ، صحيح معجزات النبي ﷺ ص ١٧.

الماء من بين أصابعه .

أما الإرهاص : فهو الأمر الخارق للعادة يظهر للنبي قبل بعثته[١] .

فالمعجزة إذاً أمر خارق للعادة ، و يكون بعد النبوة ، و مقرون بالتحدي و لا يأتي أحد بمثلها .

أما الإرهاص ، فهو أمر خارق للعادة ، و يكون قبل النبوة ، يعني : قبل أن يوحى إلى النبي بأنه نبي .

فالأمر الجامع بين المعجزة و الإرهاص هو : الخرق للعادة ، لتثبيت النبوة و الرسالة ، و تشريف صاحبها ، و تقويته على المواجهات و المعارضات التي تأتي من قبل البشر ، فيقوى ظهره و يطمئن قلبه .

و من الإرهاصات الممهدة لبعثته – و هي الأمور العجيبة التي لم تظهر لسائر البشر قبله ﷺ – آيات و عجائب ولادته ﷺ ؛ أن آمنة بنت وهب قالت : لما فصل مني – تعني النبي ﷺ – خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق و المغرب[٢] ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها و رفع رأسه إلى السماء .

و من ذلك : وقوع حادثة الفيل عام مولده سنة ٥٧٠ ميلادية .

و كذلك تظليل الغمام عليه ﷺ ، و وجود خاتم النبوة على كتفه[٣] ، إلى غير ذلك من المقدمات الممهدة لبعثته ﷺ ، تثبيتا له و رسوخا لقدمه و اطمئناناً لقلبه و من هذه الإرهاصات شق صدره الشريف عن طريق الملائكة الكرام

---

(١) تاج العروس ٢٩٤/٩ ، المعجم الوسيط ٣٧٧/١ بتصرف.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء و المرسلين باب و من كتاب آيات رسول الله التي هي دلائل نبوته ٦٧٣/٢ – ٦٧٤ / ح ٤٢٣٠ حديث طويل فيه قصة شق الصدر و في نهايته .... فقالت أمه : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام) ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه و وافقه الذهبي .

(٣) سيرة ابن كثير ٢٠٦/١ – ٢٢٣ و صحيح معجزات النبي ﷺ ص ٢٢ .

و هو موضوع بحثنا .

و قد شُقَّ صدره الشريف ﷺ لحكم جليلة منها : الزيادة في قوة اليقين ، فما زاغ البصر و ما طغى ، و منها : الكمال في تطهير الباطن كما تم تطهير الظاهر ، و منها : تفسيح صدره ﷺ لمناجاة الحق تبارك و تعالى ، و دعوة الخلق و منازعة الجن و الإنس ، إلى غير ذلك من الحكم التي سنتكلم عنها بالتفصيل إن شاء الله ، **و قد قسمت البحث إلى مقدمة ، و أربعة أبواب و خاتمة :**

أما المقدمة فقد اشتملت على نبذه مختصرة عن شخصية سيدنا محمد ﷺ، و بينت فيها الفرق بين المعجزات و الإرهاصات ، و ذكرت بعضا من إرهاصات نبوته ﷺ و منها شق صدره الشريف ﷺ

أما الباب الأول فهو شق صدره الشريف و دليله و كيفيته ، ويشمل فصلين :

الفصل الأول : شق صدره الشريف و دليله و آراء العلماء فيه .

الفصل الثاني : كيفية الشق و هل لقي المصطفى من ذلك مشقة .

أما الباب الثاني فهو عدد مرات الشق و الأدلة عليها ، و يشمل أربعة فصول :

الفصل الأول : الشق الأول و الحكمة منه .

الفصل الثاني : الشق الثاني .

الفصل الثالث : الشق الثالث و الحكمة منه .

الفصل الرابع : الشق الرابع و الحكمة منه .

أما الباب الثالث فهو تكرار شق الصدر و الحكمة منه .

أما الباب الرابع فهو الحكمة من الغسل و يشمل فصلين :

الفصل الأول : الغسل بماء زمزم

الفصل الثاني : الغسل بالثلج و البرد .

أما الباب الخامس فهو في معنى الحكمة و الإيمان و أثر ذلك على سيدنا محمد ﷺ و يشمل فصلين :

الفصل الأول : في معنى الحكمة و الإيمان .

الفصل الثاني : أثر ذلك على سيدنا محمد ﷺ .

ثم الخاتمة و النتيجة .

الباب الأول

في

شق صدره الشريف و دليله و كيفيته

ويشمل فصلين :

الفصل الأول : شق صدره الشريف و دليله و آراء العلماء فيه .

الفصل الثاني : كيفية الشق و هل لقي المصطفى ﷺ من ذلك مشقة .

الفصل الأول

شق صدره الشريف و دليله و آراء العلماء فيه

الشق : الفَصْل في الشيء ، و هو الموضع المشقوق كأنه سُمِّي بالمصدر .

و الصَّدْرُ : مُقَدَّمُ كل شيء ، يقال : صَدْرُ الكتاب ، و صدر الإنسان : الجزء الممتد من أسفل العنق إلى فضاء الجوف ، و سمي القلب صدراً لحلوله به[١] .

و شق صدر نبينا محمد ﷺ ثابت بالكتاب بتواتر الروايات الصحيحة فيجب التسليم له دون تعرض لصرفه عن حقيقته ؛ لصلاحية القدرة فلا يستحيل ذلك .

و **قد قال العلماء الجهابذة** : لا يُلْتفت إلى إنكار شق الصدر ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير[٢] .

أما ما وقع من بعض الجهلة، من إنكار ذلك و حمله على الأمر المعنوي ، وإلزام قائله القول بقلب الحقائق ، فهو جهل صريح و خطأ قبيح ، نشأ من خذلان الله لهم، وعكوفهم على العلوم الفلسفية، و بعدهم عن دقائق السنة المحمدية .

و الدليل على شق الصدر من الكتاب ؛ قوله ﷻ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[٣] .

أي : ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ، و دعوة الخلق ، أو نورناه و جعلناه فسيحا رحيبا واسعا .

قال الراغب : أصل الشرح بسط اللحم و يقال : شَرَحْتُ اللحم و شَرَّحْتُهُ ، وقيل : إنه إشارة إلى شق صدره ﷺ حينما أتاه جبريل عليه السلام و هو عند مرضعته حليمة ، صغيراً و عمره أربع سنين، فشق صدره وأَخْرَجَ قلبه ، وغسله ونقاه،

---

(١) المعجم الوسيط ٤٨٩/١ – ٥٠٩ ، النهاية ٤٩١/٢ ، لسان العرب ٤٤٥/٤ بتصرف.

(٢) من هؤلاء العلماء : الإمام ابن حجر و النووي و القرطبي و التوربشتي و الطيبي و غيرهم (سبل الهدى و الرشاد ٨٩/٢ و المفهم ٣٨٢/١) بتصرف و اختصار).

(٣) سورة الشرح آية (١) .

ثم ملأه علما و إيمانا ، ثم رده في صدره ، و شُقَّ أيضا عند بلوغه عشر سنين ، و عند البعثة ، و ليلة الإسراء .

و قد عبر ﷻ في قوله ﴿ ألم نشرح ﴾ بصيغة الاستفهام الإنكاري ، أي أنه استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح و إيجابه فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك .

فهذه الآية الكريمة دليل على شق صدر النبي ﷺ .

و قد عبر المولى ﷻ بقوله ﴿ صدرك ﴾ دون قلبك ؛ لأن الصدر محل الوسوسة ، كما يقال : يوسوس في صدور الناس ، فإزالة تلك الوسوسة و إبدالها بدواعي الخير هي الشرح و القلب محل العقل و المعرفة ، و هو الذي يقصده الشيطان فيجيء أولاً إلى الصدر الذي هو حصن القلب ، فإذا وجد مسلكاً نزل فيه هو و جنده ، و بث فيه الهموم و الغموم ، فيضيق القلب حينئذ ، و لا يجد للطاعة لذة و لا للإسلام حلاوة ، و إذا لم يجد له مسلكاً و طرد ، حصل الأمن و انشراح الصدر و تيسر القيام بأداء العبودية[1] .

و الدليل عليه من السنة ما رواه البخاري[2] . و مسلم[3] في صحيحيهما بسندهما أن رسول الله ﷺ قال : ((**فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي و أَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَل جِبْرِيلُ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِماءِ زَمْزَم ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ،**

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٤/٤ - الفتوحات الإلهية ٥٥٤/٤ - تفسير الكشاف ٦١٤/٤ - تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل ٦٠٥/٢ - الدر المنثور ٤٠٦/٦ بتصرف و اختصار .

(٢) في كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، ٥٤٧/١ / ح ٣٤٩ ، و في كتاب الحج ، باب ما جاء في زمزم ، ٥٧٦/٣ / ح ١٦٣٦ ، و في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ذكر إدريس عليه السلام ٤٣١/٦/ح ٣٣٤٢ ، و في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء و غيرهم ٤٨٦/١٣ / ح ٧٥١٧ مطولا.

(٣) في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات و فرض الصلوات ٥٧٣/٢/ح ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، مطولاً .

مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً و إِيماناً ، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ...))

و من الأدلة أيضا على ثبوت شق الصدر ، ما كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يرونه من أثر الإبرة التي خاط بها جبريل صدره ﷺ .

و ذلك فيما رواه مسلم في صحيحه[١] بسنده عن أنس بن مالك ؛ أن رسولَ الله ﷺ أتاه جبريل و هو يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمان . فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ . فاسْتَخرَجَ القَلْب . فاسْتَخرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً . فَقَالَ : هَذا حَظ الشَّيْطان مِنْك . ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْت مِنْ ذَهَبٍ بِماءِ زَمْزَم . ثُمَّ لأَمَهُ . ثُمَّ أَعادَهُ فِي مَكانِهِ وَجاءَ الْغِلْمانُ يَسْعون إِلَى أُمِّهِ (يَعْني ظِئْرَهُ)[٢] .

فَقالوا : إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ . فاسْتَقْبَلوهُ وَ هُوَ مُنْتَقِعُ[٣] اللوْنِ . قَالَ أَنَسٌ : وَ قَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِك المِخْيَط[٤] فِي صَدْرِهِ .

قال الإمام القرطبي في المفهم[٥] : هذا الحديث محمول على ظاهره و حقيقته إذ لا إحالة في متنه عقلا ، و لا يستبعد من حيث أن شق الصدر و إخراج القلب موجب للموت ، فإن ذلك أمر عادي ، و كانت جل أحواله ﷺ خارقة للعادة ، إما معجزة و إما كرامة .

فبعد كل هذه الأدلة ؛ من الكتاب و السنة الصحيحة ، و رؤية الصحابة لأثر الخيط في صدر النبي ﷺ ؛ فلا مجال لمشكك أو منكر لهذا الأمر الجليل ، الذي أكرم الله به نبيه الرءوف الرحيم ﷺ فشق الصدر ثابت يقينا .

---

(١) في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات و فرض الصلوات ، ١٤٧/١/ح ٢٦١ ، و أخرجه أحمد بن حنبل ٢٨٨/٣ ، و النسائي ٢٢٤/١ – ٢٢٥.

(٢) أي المرضعة .

(٣) أي متغير اللون من الفزع .

(٤) الإبرة و هو ما يخاط به (المفهم ٣٨٢/١ / ح ١٢٨ و النووي ٥٧٤/١) .

(٥) ٣٨٢/١/ ح ١٢٨ .

الفصل الثاني
كيفية شق صدره ﷺ
و هل لقي المصطفى ﷺ من ذلك مشقة

رسولنا الحبيب محمد ﷺ تحمل من أجل تبليغ رسالة ربه إلى البشر ، الكثير و الكثير ، و تعرض لمواقف صعبة لا يتحملها أقوى الرجال ، فكان لها ﷺ أشجع البشر و أقواهم ، و من هذه المواقف ، حادثة شق صدره الشريف ﷺ

و قد نتساءل كيف تم هذا الأمر ؟

هل كان بواسطة آلة ؟

ظاهر الروايات يدل على أن شق صدره الشريف كان بآلة و الدليل على ذلك :

قوله (فشق) و الشق لا يكون إلا بآلة

و قول الملك (خُطْ بطنه فخاطه) و في رواية أخري (حُصْهُ فحاصه) .

و في حديث أنس (كانوا يرون أثر المخيط في صدره ﷺ)

و في حديث أبي ذر (و أتيت بالسّكينة كأنها بَرَهْرَهَة فوضعت في صدري) و البَرَهْرَهَة قيل : هي سِكِّينة بيضاء جديدة صافية ، و اختار الخطابي: أنها السّكين ، و قال ابن الأنباري : هي السكينة المعوجة الرأس التي تسميها العامة (المِنْجل) وتسمى أيضا (المُدْية) [١] .

و في الشق الأول و هو صغير ، حينما رآه الأطفال فقالوا (إن محمداً قُتل) [٢] . دلت أيضا على أن الشق كان بآلة .

كل هذه الروايات نستدل منها على أن شق صدره الشريف كان بواسطة آلة تشبه السّكينة المعروفة لدينا الآن .

---

(١) النهاية ١٢٢/١ ،، ٣٨٦/٢ ، سبل الهدى ٩٣/٢ بتصرف .

(٢) سبقت في الشق الأول .

أما كـــون هذا الشـــق قد لاقى فيه النبي ﷺ مشـــقة أم لا ؟ فقـــد اختلـــف العلمـــاء فـــي ذلك .

منهم من قال : أن ذلك كان بمشقة عظيمة ، و لهذا انتُقِـــع لونـــه ﷺ أي صـــار كـــلون النقـــع و هو الغبار و هذه صفـــة ألـــوان المـــوتى[١] .

و قال آخرون[٢] : أن ذلك لم يشق علـــى النبي ﷺ و هو الرأي الراجح .

و من الأدلة على ذلك :

(١) روايـــة أبي هـــريرة[٣] و هـــي في الشـــق الثـــاني و فيها (و قال أحـــدهما لصاحبه : أفلق صدره ، فهـــوى أحـــدهما إلـــى صـــدري ، ففـــلقهما فيـــما أرى ، بلا دم و لا وجـــع)

فدلـــت علـــى أن النـــبـــي ﷺ لـــم يجـــد ألمـــا و لا مشـــقة في هـــذه الحادثة .

أما في المرة الأولى ، و ما حدث من كون النبي ﷺ قد (انتقع لونـــه) ، فقد يكون هذا لأنه كان صغيراً و قد انتابه بعض الخوف مما حـــدث ، و لـــيس لأنه وجد ألما و مشقة في ذلك .

---

(١) قال ذلك ابن دحيه (سبل الهدى ٢/٩٢ بتصرف.

(٢) رأى الحـــافظ و ابن الجـــوزي وغيرهـــم مـــن العلماء (سبل الهدى ٢/٩٢ بتصرف).

(٣) سبقت في الشق الثاني .

الباب الثاني

عدد مرات شق الصدر و الأدلة عليها

و يشمل أربعة فصول :

الفصل الأول : الشق الأول و الحكمة منه .

الفصل الثاني : الشق الثاني.

الفصل الثالث : الشق الثالث و الحكمة منه .

الفصل الأول

الشق الأول و الحكمة منه

شق صدر النبي ﷺ ثابت بالكتاب و السنة و قد اختلف آراء العلماء في : كم مرة شق صدره ﷺ ، و الرأي الصحيح : أنه قد تكرر شق صدره الشريف ﷺ أربع مرات على النحو التالي :

كان صغيراً في بني سعد ، و عمره حوالي أربع سنوات فقد روى مسلم[١]، و أحمد بن حنبل[٢]، والبغوي[٣] بسندهم عن أنس ((أن رسول الله ﷺ أتاهُ جبريلُ و هو يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمان ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ فاستَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً [٤] فقال : هذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ(٥) من ذَهَبٍ بِماءِ زَمْزَم ، ثُمَّ لأمه[٦] ، ثُمَّ أَعادَهُ فِي مَكَانِه ، و جاءَ الغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِهِ يَعْني ظِئْرَهُ [٧] فَقَالوا : إن مُحَمَداً قَدْ قُتِل ، فاسْتَقْبَلوهُ و هو مُنْتَقِعُ[٨] اللَّوْنِ ، قالَ أَنَسٌ : و قدْ كُنْت أرَى أثَرَ ذلك المِخْيَط في صَدْرِهِ .

---

(١) في صحيحه ، في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات و فرض الصلوات ٢/٥٧٣/ح ٢٦١

و ذكره أحمد القسطلاني في المواهب اللدنية ١/٨٢

و ذكره ابن هشام في السيرة ١/٢١٥/ح ١٦٢

و ذكره ابن كثير في السيرة ١/٢٢٨ .

(٢) في مسنده ٣/١٤٩.

(٣) في شرح السنة ، كتاب الفضائل ، باب علامات النبوة ٧/٦٤/ح ٣٦٠٢.

(٤) العلقة : الدم الغليظ أو الجامد أي قطعة دم منعقد (النهاية ٣/٢٩٠ و المعجم الوسيط ٢/٦٢٢).

(٥) الطَسْت : إناء معروف .

(٦) لأمَهُ ، جمعه و ضم بعضه إلى بعض (النووي على مسلم ٢/٥٧٤) .

(٧) ظِئْره : المرضعة .

(٨) مُنْتَقِع : أي متغير اللون من حزن أو فزع (النووي ٢/٥٧٤ باختصار) .

الحكمة في شق صدره في حال صباه :

استخراج العلقة منه ؛ لتطهيره من حالات الصبا ، حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان .

و قد يتأتى سؤال و هو : لِمَ خُلِقَت العلقة فيه ، و قد كان الله قادراً على أن يخلقه بدونها ؟ و للإجابة على ذلك أنها : من جملة الأجزاء الإنسانية ، فخلقت تكملة للخلق الإنساني و لا بد ، و نزعها كرامة ربانية طرأت بعده فإخراجها بعد خلقها دليل على مزيد الرفعة ، و عظيم الاعتناء و الرعاية مِنْ خَلقِهِ بدونها .

و قال بعض العلماء : لو خُلِقَ سليما منها ، لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته ، فأظهره الله على يد جبريل ؛ ليتحققوا كمال باطنه ، كما برز لهم مكمل الظاهر[1] .

---

(١) الفتح الرباني ٢٠/١٩٠ و المواهب اللدنية (بتصرف) .

الفصل الثاني

الشق الثاني

كان و عمره عشر سنين و أشهر ، جاءه ملكان فشقا صدره للمرة الثانية و الدليل على ذلك ما أخرجه الحاكم في مستدركه[١] . [١] و الدارمي في سننه[٢] . [٢] و أحمد بن حنبل في مسنده[٣] . [٣] بسندهم عن عتبة ابن عبد السلمي[٤] . [٤] : أن رجلاً[٥] . [٥] سأل رسول الله ﷺ كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟

قال : **((كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا و ابن لها في بَهْم(٦) لنا و لم نأخذ معنا زاداً ، فقلت : يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخي و كنت عند البهم ، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران[٧]، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال : نعم فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفاء[٨] . فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما**

---

(١) في كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء و المرسلين ، و من كتاب آيات رسول الله ﷺالتي هي دلائل النبوة ، ٦٧٣/٢/ح ٤٢٣٠ و صححه الحاكم على شرط مسلم و وافقه الذهبي .

(٢) في المقدمة ، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ ٢٠/١/ح ١٣ .

(٣) ٤٥٠/١٣ – ٤٥١ / ح ١٧٥٨٠ و قال المحقق : إسناده صحيح .

(٤) عُتْبَة بن عَبْد السُّلَمي أبو الوليد ، صاحب النبي ، كان اسمه عَتَلَة فسماه النبي ﷺ عتبة توفي سنة ٨٧ هجرية (سير النبلاء ٤١٦/٣ / ٦٨ و الجرح و التعديل ٣٧١/٦ ٢٠٥٠) .

(٥) الرجل المقصود بَيَّن في الرواية الثانية و أنه أبو هريرة ﷺ .

(٦) بَهْم : جمع بهمة و هي ولد الضأن الذكر و الأنثى ، و المراد أنه كان يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع (الفتح الرباني ١٩١/٢٠) .

(٧) ملكان من الملائكة (الفتح الرباني ١٩١/٢٠) .

(٨) أي أضجعاه على ظهره (النهاية ٩٤/٤ و الفتح الرباني ١٩١/٢٠ بتصرف).

لصاحبه : حصه ± يعني خطه ± و اختتم عليه بخاتم النبوة[١] .

فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفه و اجعل ألفا من أمته في كفة فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخروا علي ، فقالا : لو أن أمته وزنت به لمال بهم[٢] ثم انطلقا و تركاني و فَرَقْتُ فَرَقاً[٣] شديداً ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي رأيت ، فأشفقت أن يكون قد التبس بي ، فقالت : أعيذك بالله[٤]، فرحلت بعيراً[٥] لها فجعلتني على الرحل و ركبت خلفي حتى بلغنا أمي فقالت : أديت أمانتي و ذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يَرُعها[٦] ذلك ، فقالت : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام[٧]))

هذا الحديث الشريف دليل على شق صدر النبي ﷺ للمرة الثانية ، و فيه

---

(١) قال العلماء : إضافته للنبوة لكونه من آياتها ، و سمي بخاتم النبوة لأنه أحد العلامات التي يعرفه بها علماء الكتب السابقة كما في قصة بحيرا الراهب ، و إني أعرفه بخاتم النبوة (الفتح الرباني ٢٩٢/٢٠ و المفهم بتصرف).

(٢) هذا الحديث يقتضي أن المعاني جعلها الله ذواتا ، فعند ذلك قال الملك لصاحبه ، اجعله في كفه ، و اجعل ألفا من أمته في كفة ، فرجح ما له ﷺ رجحانا طاش منه ما للألف . بحيث يخيل إليه أنه سقط بعضهم ، و لما عرف الملكان منه الرجحان ، و أنه معنى لو اجتمعت المعاني كلها التي للأمة و وضعت في كفة و وضع ما له ﷺ لرجح على الأمة ، قالوا : لو أن أمته وزنت به مال بهم ؛ لأن مآثر خير الخلق و ما وهبه الله له من الفضائل يستحيل أن يساويها غيرها (الفتح الرباني ١٩١/٢٠ بتصرف) .

(٣) الفَرَق : الخوف و الفزع (النهاية ٤٣٨/٣) .

(٤) معناه " مسني شيء من الشيطان (الفتح الرباني ١٩١/٢٠) .

(٥) الراحلة من الإبل : البَعيرُ القويُّ على الأسفار و الأحْمَال ، و الذَّكَر و الأنْثى فيه سواء ، و الهاء فيه للمُبالغة ، و هي التي يَختارُها الرجل لمركَبه و رَحْله على النَّجابة و تمام الخَلْق و حُسن المنظر (النهاية ٢٠٩/٢) .

(٦) يرعها : أي لم يخفها و لم تجزع من ذلك الخبر (الفتح الرباني ١٩١/٢٠) .

(٧) يعني أنه محفوف بعناية الله تعالى ، فلا يخاف عليه من شيء (الفتح الرباني ١٩١/٢٠) .

أيضا أنه ﷺ كان يرعى الغنم قبل النبوة ، و الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم؛ أن يجعل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ؛ لأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم و الشفقة ، لأنهم إذا صبروا على رعيها و جمعها بعد تفرقها في المرعى ، و نقلها من مسرح إلى مسرح ، و دفع عدوها من سبع و غيره كالسارق ، و علموا اختلاف طباعها ، و شدة تفرقها مع ضعفها

و احتياجها إلى المعاهدة ؛ ألفوا من ذلك ؛ الصبر على الأمة ، و عرفوا اختلاف طباعها و تفاوت عقولها فجبروا كسرها ، و رفقوا بضعيفها ، و أحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة ، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم ، و ذكر النبي ﷺ لهذا الأمر – و هو رعيه للغنم – بعد أن أصبح نبياً مرسلاً و بعد أن علم أنه أكرم الخلق على الله لدليل على عظم صفة تواضع نبينا و حبيبنا محمد ﷺ [١] .

و من الروايات الدالة على الشق الثاني أيضا ما أخرجه أحمد بن حنبل[٢] بسنده عن أبي بن كعب .

أن أبا هريرة كان جرياً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً و قال : ((**لقد سألت أبا هريرة[٣]، إني لفي صحراء ابن عشر سنين و أشهر ، و إذا بكلام فوق رأسي ، و إذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال نعم**

---

(١) الفتح الرباني ١٩٤/٢٠ – ١٩٥ بتصرف .

(٢) في مسنده ٤٦٥/١٥ / ح ٢١١٥٦ ، و قال محققه : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

- و ذكره ابن حجر في فتح الباري ٤٨٩/١٣.
- و ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٢/٨ – ٢٢٣ و قال رواه عبد الله و رجاله ثقات وثقهم ابن حبان

(٣) أبا هريرة : منادى حذف منه حرف النداء و التقدير (يا أبا هريرة) .

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، و أرواح[١] لم أجدها من خلق قط ، و ثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان ، حتى أخذ كل منهما بعضدي[٢] ، لا أجد لأحدهما مساً فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه[٣]، فأضجعاني بلا قصر و لا هصر[٤]، و قال أحدهما لصاحبه : افلق صدره[٥] ، فهوى[٦] أحدهما إلى صدري ، ففلقهما فيما أرى بلا دم و لا وجع ، فقال له : أخرج الغل و الحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة و الرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى ، فقال : اغدوا سلم ، فرجعت بها أغدوا رقة على الصغير ، و رحمة للكبير)) .

---

(١) الأرواح: جمع ريح بمعنى الرائحة و هي عَرَض يدرك بحاسة الشم و هي مؤنثة يقال: (ريح) أو (رائحة) ذكية (المعجم الوسيط ٣٨١/١ و سبل الهدى و الرشاد ٨٤/٢).

(٢) العضُد : ما بين الكتف و المرفق (النهاية ٢٥٢/٣).

(٣) ضَجَعَ ضَجْعاً و ضُجُوعا : وضع جَنْبَهُ على الأرض أو نحوها ، و المقصود هنا : أرقداه على ظهره ، كما بُيِّن ذلك في الروايات الأخرى (المعجم الوسيط ٥٣٤/١ ، النهاية ٧٤/٣ بتصرف).

(٤) القَصْر : القهر و الغلبة و الإجبار ، و قصرت الثوب أي أرخيته بلا استرخاء . هَصَر ظهره : أي ثناه إلى الأرض . و أصل الهَصْر : أن تأخذ برأس العود فتثنيه إليك و تَعْطفه و المعنى : أنهما لم يثنيا ظهري ، و لم يكرهاني عندما أضجعاني (النهاية ٦٨/٤ و ٢٦٤/٥ و الفتح الرباني ١٩٥/٢) .

(٥) الفَلْقُ : الشَّقُّ (المعجم الوسيط ٧٠١/٢) .

(٦) هو : مال إليه ، و في رواية (خوى) بدلاً من (هوى) و هما بمعنى واحد (المعجم الوسيط ١٠٠١/٢ و سبل الهدى ٨٤/٢ بتصرف) .

الفصل الثالث

الشق الثالث و الحكمة منه

كان ذلك عند مبعثه[١] ﷺ للنبوة كما قال ابن حجر و غيره[٢]، فقد روى أبو داود الطيالسي[٣] بسنده عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ اعتكف[٤] هو وخديجة شهراً بحراء[٥] فوافق ذلك شهر رمضان فخرج رسول الله ﷺ و سمع السلام عليكم ، قال : فظننت أنه فجأة[٦] الجن

فقالت : أبشر[٧] فإن السلام خير ، ثم رأى يوما آخر جبريل على الشمس ، جناح له بالمشرق ، و جناح له بالمغرب فهِبْتُ منه[٨] قالت : فانطلق يريد أهله ، فإذا هو بينه و بين الباب ، قال : فكلمني حتى أنست به ، ثم وعدني موعداً ، قال : فجئت لموعده ، و احتبس علي جبرئيل ، فلما أراه أن يرجع . إذا هو به و بميكائيل عليهما السلام فهبط جبرئيل إلى الأرض و بقي ميكائيل بين

---

(١) بعثه أرسله وحده ، و بعثه بالكتاب و نحوه (المعجم الوسيط ٦٢/١) .

(٢) في فتح الباري ٤٨٩/١٣ ، و في سبل الهدى ٨٥/٢ ، و المواهب اللدنية ١٠٨/١ و الفتح الرباني ١٩٦/٢٠ .

(٣) في مسنده ٢١٥/٧ - ٢١٦ / ح ١٥٣٩ حدثنا حماد بن سلمة قال أخبرني أبو عمران الجوني عن رجل عن عائشة أن رسول الله ﷺ .....الحديث) و رجال إسناده ثقات و فيه رجل لم يسم . و ذكر صاحب سبل الهدى و الرشاد أن الحارث بن أبي أسامة أخرجه في مسنده ، و البيهقي و أبو نعيم في الدلائل عن عائشة (سبل الهدى ٨٥/٢) بتصرف .

(٤) الاعتكاف و العكوف هو الإقامة على الشيء و بالمكان و لزومهما ، و منه قيل : لمن لازم المسجد و أقام على العبادة فيه : عاكف و معتكف (النهاية ٢٨٤/٣) .

(٥) حِرَاء جبل من جبال مكة معروف (النهاية ٣٧٦/١) .

(٦) فَجِئَه الأمر و فجأةُ فُجاءةً ، إذا جاء بَغْتَه (النهاية ٤١٢/٣) .

(٧) بَشَرَ به بُشْراً : فَرِحَ به و سُرَّ ، و البِشَارة : الخبر السار لا يعلمه المُخْبَرُ به (المعجم الوسيط ٥٨/١) .

(٨) هِبْتُ : خِفْتُ .

السمـــاء و الأرض ، قـــال : فأخـــذني جبرئيـــل فصـــلقني[١] بحلاوة القفـــا ، و شـــق عن بطـــني[٢]، فأخـــرج منـــه ما شاء الله ، ثم غسله في طست[٣] من ذهب[٤] ثم أعاده فيه ، ثم كفـــاني[٥] كما يكفي الإناء ثم ختم[٦] فـــي ظهـــري حـــتى وجـــدت مـــس الخاتـــم .

ثم قال لي : اقرأ باسم ربك ، و لم أقرأ كتابا قط ، فأخذ بحلقـــي حـــتى أجهـــشت بالبكـــاء ، ثم قال لي ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ

---

(١) و في رواية فألقاني .

(٢) باطن كل شيء : داخله ، و في هذه الرواية : أن المغسول هو البطن ، و في روايـــة أخرى : أن المغسول هو القلب ، و يجمع بينهـــما : بأنه ﷺ أخبر مرة بغسل البطن ، و لم يتعرض لذكر القلب ، و أخبر مرة بذكر القلب ، و لم يتعرض لـــذكر الـــبطن ، فيكون قد حصل فيهما معا ، مبـــالغة في تنظيـــف المحل (القاموس المحيط ٢٠٢/٤ و سبل الهدى ٩٧/٢ بتصرف).

(٣) خص الطست : لكونه أشهر آلات الغَسْل آنذاك .

(٤) و خص الذهب ؛ لكونه مناسباً للمعنى الذي أريد به ، فإن نظرت إلى لفظ الذهـــب ، فمطابق للذُهاب ؛ فإن الله تعـــالى أراد أن يُذْهِبَ عنـــه الرجسَ و يطهِّره تطهيراً و إن نظرت إلى معنى الذّهب و أوصافه ؛ وجدته أنقى شيء و أصفَاه ، يقال فـــي المثـــل : أنقى من الذهب ، و قد طابق طست الذهب : ما أريد بالنبي ﷺ من نقاء قلبه ، و مـــن أوصاف الذهب المطابقة لهذا المقام : ثقله و رسوبه ، فإنه يجعل في الزئبق الذي هـــو أثقل الأشيـــاء فيرسب ، و الله تعـــالى يقـــول ﴿ إنا سنلقي عليك قـــولاً ثقـــيلاً ﴾ ، و قـــد روي أنه ﷺ أنـــزل عليه الوحي و هو على ناقته فثقل عليها حتى ساخت قوائمها في الأرض ، فقد طابقت الصفة المعقوله الصفة المحسوسة ، كما أننا إذا نظرنا إلـــى الذهب ، فهو زخرف الدنيا و زينتها ، و قد فُتح بالقـــرآن و الوحـــي على النبي ﷺ و أمته خزائن الملوك و صـــار ذلك إلى أيديهم ، ثم إن الله وعد باتباع القـــرآن قصـــور الذهب في الجنة ، فكان الذهب يشعر بالذهب الذي يصير إليه من اتبع الحق و القرآن، كما أن أوصافه تشعر بأوصاف الحق و القرآن ، و لفظه يشعر باذهاب الرجـــس ، كمـــا أنـــه من دواعـــي السرور (سبل الهدى ٩٤/٢ بتصرف و اختصار).

(٥) كفأ الإناء : قَلَبَهُ (المعجم الوسيط ٧٩١/٢) .

(٦) ختم الشيء و عليه : طبعه و أثر فيه بنقش الخاتم (المعجم الوسيط ٢١٨/١) .

عَلَق إلى قــوله تعــالى .....مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال : فما نسيت شيئاً بعد ، ثــم وزنني برجل فوزنته ، ثم وزنني بآخر فوزنته ، ثم وزنني بمائه ، فقال ميكائيل: تبعثه أمته ورب الكعبة ، ثم جئت إلى منزلي فما تلقاني حجر و لا شجـــر إلا قــال : السلام عليك يا رسول الله ، حتى دخلت على خديجة فقالت السلام عليك يا رسول الله)

الحكمة في الشق الثالث :

زيادة الكرامة ؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحــوال مــن التطهر[١] .

---

(١) الفتح الرباني ١٩٦/٢٠ و المواهب اللدنية ١٠٨/١ .

الفصل الرابع

الشق الرابع و الحكمة منه

ليلة الإسراء[١] ، و الإسراء : هو السير ليلاً ، و الإسراء كان برسول الله ﷺ في جنح الليل من مسجد مكة إلى بيت المقدس ، و الدليل عليه من الكتاب قوله ﷻ ﴿ سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِه لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذي بَارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا إنه هُوَ السَمِيعُ البَصير ﴾[٢] .

و **قد اختلف في كيفية الإسراء ، فقيل** : كان كله مناما ، و قيل : كان كله يقظة ، و قيل : كان إلى المسجد الأقصى يقظة ، و إلى ما بعد ذلك مناما

قال القرطبي[٣] : و كل ذلك جائز ، و لكن الذي عليه معظم السلف والخلف ؛ أنه أسري بجسده و حقيقته في اليقظة إلى آخر ما انطوى عليه الإسراء ، و عليه يدل ظاهر الكتاب ، و صحيح الأخبار ، و مبادرة قريش لإنكار ذلك و تكذيبه ، كل ذلك دليل على أنه يقظة و بجسده ، و لو كان مناما لما أنكروه ، و لما افتُتِن به من افتتن ، إذ كثيراً ما يُرى في المنام أمور عجيبة و أحوال هائلة ، فلا يستبعد ذلك في النوم ، و إنما يستبعد في اليقظة .

وفي تلك الليلة شق صدره الشريف ﷺ للمرة الرابعة فقد روى البخاري[٤]،

---

(١) اختلف في وقته ؛ فقيل : كان بعد مبعثه بخمسة عشر شهراً ، و قيل : كان قبل الهجرة بسنة، وقيل : بعد البعثة بخمس سنين ، و قيل بعدها باثني عشر سنة ، و أجمعوا على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء (المفهم ٣٨٦/١ و عمدة القارئ ٣٩/٤ بتصرف) .

(٢) سورة الإسراء آية (١) .

(٣) لمفهم ٣٨٤/١ بتصرف .

(٤) في صحيحه ، في كتاب الحج ، باب ما جاء في زمزم ، ٥٧٦/٣/ح ١٦٣٦ (من الفتح) و في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ذكر إدريس عليه السلام ، ٤٣١/٦/ح ٣٣٤٢ .
و في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز و جل يوم القيامة مع الأنبياء و غيرهم، ٤٨٦/١٣/ح ٧٥١٧ .
في كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ٥٤٧/١/ح ٣٤٩ .

و مسلم[١] بسندهما

عن أنس بن مالك : ((كَانَ أَبُو ذَرٍّ[٢] ﷺ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال : فُرِجَ[٣] سَقْفي وَ أنا بمكةَ ، فَنَزَل جِبْريلُ عليه السَّلام فَفَرَجَ صدري ، ثُمَّ غَسلَهُ بماءِ زَمزمَ ، ثمَّ جَاءَ بطَسْتٍ من ذهب[٤] ممتلئ حكمةً و إيمانا[٥]، فأَفْرغَها في صدري ثم أطبقه[٦]، ثمَّ أخذ بيدي فعرجَ[٧] بي إلى السماء الدُّنيا . قال جبريل[٨] لخازن

---

(١) في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ .

(٢) جُنْدُب بن جُنادة الغفاري ، أحد السابقين الأولين من نجباء الصحابة ﷺ خامس خمسة في الإسلام ، كان رأساً في الزهد مات سنة ٣٢ هجرية ترجمته في (حلية الأولياء ١٥٦/١ - ١٧٠ و سير النبلاء ١٠/٤٦/٢) .

(٣) أي فتح ، و الحكمة فيه : أن الملك انصب إليه من السماء انصبابة واحدة ، و لم يعرج على شيء سواه مبالغة في المناجاة ، و تنبيها على أن الطلب وقع على غير ميعاد ، و يحتمل أن يكون السر في ذلك ؛ التمهيد لما وقع من شق صدره ، فكأن الملك أراه بانفراج السقف و التئامه في الحال : كيفية ما سيصنع به لطفاً و تثبيتاً له و الله أعلم (فتح الباري ٥٤٨/١) .

(٤) الطست : إناء معروف يستخدم للغسل عرفا و كان من ذهب ؛ لأنه أعلى أواني الجنة (فتح الباري ٥٤٨/١) .

(٥) معناه : أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان فسمي حكمة و إيمانا مجازاً ، أو مثلاً له على جواز تمثيل المعاني ، و قد اختلف في تفسير الحكمة ؛ فقيل : إنها العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة و تهذيب النفس ، و تحقيق الحق للعمل به ، و الكف عن صده ، قد تطلق الحكمة على القرآن ، و هو مشتمل على ذلك كله ، و على النبوة كذلك ، و قد تطلق على العلم فقط (فتح الباري ٥٤٨/١ و سبل الهدى و الرشاد ٢٢٢/٣ بتصرف) .

(٦) وضع الشيء على الشيء : أطبقه و يقال : أطبقت الشيء إذا غطيته و جعلته مطبقاً ، و لما فعل به ذلك ختم عليه بخاتم النبوة كما يختم على الوعاء المملوء فجمع الله له أجزاء النبوة و ختمها ، فهو خاتم النبيين (المعجم الوسيط ٥٥٠/٢ و النهاية ١١٤/٣ و عمدة القارئ ٣٩/٤ بتصرف) .

(٧) العُروج : الصعود ، و المِعْراج : شبْه السُّلم : أي صعد بي إلى السماء الدنيا (النهاية ٢٠٣/٣ بتصرف) .

(٨) جبريل : اسم روح القدس ، عليه السلام (لسان العرب ٩٩/١١/) .

السماء الدُّنيا : افتحْ . قال مَنْ هَذا ؟ قال : جبريلُ))

و في رواية أخرى للبخاري[١] و مسلم[٢] وأحمد بن حنبل[٣] بسندهم عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعه[٤] ﷺ قال : قال النبي ﷺ :

((بينا[٥] أنا عند البيت بين النائم و اليقظان[٦] . - و ذكر يعني رجلاً بين الرجلين ± فأُتِيتُ بطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ملآن حكمة[٧] و إيمان ، فَشُق من النَّحْرِ[٨] إلى مَرَاقِّ البطن[٩] ، ثم غُسِلَ البَطْنُ بماء زَمْزَمَ ، ثم مُلِئَ حِكْمةً و إيمانا ، و أتيت بدابة ... الحديث))

و لفظ رواية أحمد بسنده أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به ، قال : بينما أنا في الحطيم[١٠]، و ربما قال قتادة[١١] : في الحجر[١٢] مضطجع إذ أتاني آت[١٣]، فجعل يقول لصاحبه[١٤] : الأوسط

---

(١) في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٣٤٨/٦/ ح٣٢٠٧ واللفظ له.

(٢) في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات و فرض الصلوات ٥٦٧/٢ (من النووي) بنحوه .

(٣) في مسنده ، من مسند مالك بن صعصعه ، ٥١٨/١٣ / ح ١٧٧٦ بنحوه و قال محققه : إسناده صحيح . و ذكره بروايات أخرى برقم ١٧٧٦١ ، ١٧٧٦٢ .

(٤) مالك بن صعصعة الأنصاري صحابي جليل . ترجمته في (الاستيعاب ٤٠٨/٣ و تهذيب التهذيب ٢٢/١٦/١٠) .

(٥) بينا : ظرف زمان بمعنى المفاجأة (النهاية ١٧٦/١) .

(٦) و في رواية (بيناً أنا نائم) يعني أنه كان قد ابتدأ نومه فأتاه الملك فأيقظه .

(٧) قال الحافظ : و أصح ما قيل فيها : أنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله.

(٨) النحر : أعلى الصَّدْر (المعجم الوسيط ٩٠٦/٢) .

(٩) مراق البطن : ما رقّ منه و لان في أسافله و نحوها (المعجم الوسيط ٣٦٦/١) .

(١٠) الحطيم : هو ما بين الركن و المقام ، و قيل : هو الحجر المخرج منها ، سمي به لأن البيت رفع و ترك هو محطوما (الفتح الرباني ٢٤٤/٢٠) .

(١١) أحد رواة الحديث.

(١٢) الحِجْر : اسم الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي (النهاية ٣٤١/١ .

(١٣) هو جبريل عليه السلام .

(١٤) يعني ميكائيل كما صرح بذلك في إحدى الروايات .

بين الثلاثة[١] ، قال : فأتاني فقدّ[٢] و سمعت قتادة يقول : فَشَقَّ ما بين هذه إلى هذه ، قال قتادة : فقلتُ للجارود[٣] و هو إلى جنبي ما يَعْني[٤] ؟ قال : من ثُغْرَةِ نَحْرِه[٥] إلى شِعْرَتِه[٦] ، و قد سمعته يقول : من قَصَّتِه[٧] إلى شِعْرَتِه ، قال : فاستخرجَ قلبي ، فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا و حكمة ، فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة ... الحديث))

فالروايات الصحيحة السابقة أثبتت شق الصدر، و بينت مكانه ، و أنه من أعلى الصدر إلى أسفل البطن .

الجمع بين الروايات

جاء في رواية (فرج سقف بيتي و أنا بمكة) ، و في رواية أخرى (بيناً أنا في الحطيم) و في ثالثة (وأنا عند البيت) و في رواية الطبراني (أنه بات في بيت أم هانئ ففقدته من الليل فقال : إن جبريل أتاني ..) قال الحافظ ابن حجر : و الجمع بين هذه الأقوال : أنه نائم في بيت أم هانئ و بيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، و أضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك ، فأخرجه من البيت إلى المسجد فكان به مضطجعا و به اثر النعاس[٨] .

الحكمة من الشق الرابع

الزيادة في إكرامه ﷺ ليتأهب للمناجاة ، و يستعد للتلقي الحاصل له تلك الليلة : ليلة الإسراء [٩] .

---

(١) كان ﷺ مضطجعاً بين اثنين من أصحابه ، فقال الملك لصاحبه : هو الأوسط .

(٢) شق طولاً .

(٣) الجارود بن أبي سبرة التابعي أحد الرواة (الفتح الرباني ٢٠/٢٤٤) .

(٤) أي ما يعني أنس بقوله ما بين هذه إلى هذه .

(٥) الموضع المنخفض بين الترقوتين .

(٦) أي عانته و منبت شعرها (النهاية ٢/٤٨٠) .

(٧) رأس صدره.

(٨) الفتح الرباني ٢٠/٢٤٩ و فتح الباري) .

(٩) فتح الباري ١/٥٤٨ بتصرف .

الباب الثالث
تكرار شق الصدر و الحكمة منه

تكرار شق الصدر و الحكمة منه

خلق الله محمد ﷺ بشراً ، و أوحى إليه برسالة هادية إلى الثقلين من الإنس و الجن ، اصطفاه على سائر البشر ، و حلاه بصفات خَلْقِيَّه و خُلُقِيَّه ، لم يصل إليها بشر سواه ، و أنزل محبته في قلوب متبعيه ففدوْه بأنفسهم و أموالهم و أولادهم ؛ و أكرمه الله سبحانه بمعجزات و إرهاصات تثبيتا للنبوة فيه ، و إعلانا لجميع الخلق عن مكانته العالية عند رب العالمين .

و من هذه النعم التي أكرم الله بها نبيه ، مسألة شق صدره الشريف ، و هي دليل على عظم مكانة محمد ﷺ من ربه ﷻ ، و حرصه على بيان كمال خِلْقَتِه الشريفة ، كما أبرز كمال خُلُقِه في قوله تعالى

﴿ و إنكَ لَعَلى خلُقٍ عَظِيم ﴾ (١) .

و تكرر شق صدره الشريف أربع مرات ، و تكرار النعمة يدل على عظمتها ، و لهذا الشق و تكراره حكم كثيرة ؛ ظهر بعضها و البعض الآخر قد يظهر على مدى الأجيال و الأعصار ، فشريعتنا الغراء ، المتمثلة في القرآن و السنة ، متجددة المعجزات .

فلم تتوقف على جيل سيدنا محمد ﷺ وحده ، و لكنها تتوالى بتوالي الأجيال و إلى أن تقوم الساعة .

و سيكتشف علماؤنا أسراراً ومعجزات وحكماً جليلة، معينها القرآن الكريم و السنة المحمدية، فالحمد لله الذي أكرمنا أن نكون من أمة محمد ابن عبد الله ﷺ ، و الصلاة و السلام عليك يا خاتم النبيين و رحمة الله للعالمين .

و من حكم شق صدره الشريف ﷺ ، تكريم الله ﷻ لنبيه ، فقد قال ﷻ في معرض الكلام عن شق الصدر ﴿ أَلَمْ نَشْرَح لَكَ صَدْرَك ﴾ (٢) .

فتكلم ﷻ بنون العظمة ، لأن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة ، وقد

---

(١) سورة القلم آية (٤) .

(٢) سورة الشرح آية (١) .

كان ﷺ يضيق صدره من منازعة الإنس و الجن ، فأتاه الله من آياته ما تسع لكل ما حمله ﷺ [١] .

فشق الصدر ، تكريم و تعظيم من الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ و دليل على كمال اعتنائه به و حبه له .

ومن الحكمة في شق صدره الشريف أيضا، التدليل على كمال ظاهره وباطنه.

فقد خلقه الله ﷻ بتلك العلقة الموجودة في جميع قلوب البشر ، و هي قابلة لما يلقيه الشيطان فيها فأزيلت من قلبه ، فلم يبق فيه مكان لأن يلقي الشيطان فيه شيئاً .

و قد يتأتى سؤال هو :

لِمَ خلق الله هذا القابل في الذات المحمدية الشريفة ، و قد كان يمكنه ﷻ أن يخلقه بدونها ؟ !!

و للإجابة :

أن هذا القابل هو من جملة الأجزاء الإنسانية ، فخلقه تكملة للخلق الإنساني ، و لا بد منه ، ثم نزعه منه كرامة ربانية ، و عناية إلهية .

أو أن الله ﷻ لو خلق نبيه محمداً ﷺ سليما منها ، لم يكن للآدميين إطلاع على حقيقته ، فأظهره المولى ﷻ على يد جبريل عليه السلام ليتحققوا من كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر [٢] .

و من الحكم أيضا في شق صدره ﷺ الاستدلال على كمال صبره ﷺ و هذا الأمر من جنس ما ابتلى به الله سيدنا إبراهيم و ابنه إسماعيل ، قال تعالى ﴿ وَ فَدَيناهُ بِذِبحٍ عَظِيم ﴾[٣] و شق صدره الشريف أشق و أجل من هذا ، لأن في قصة الذبح لم يتم الذبح بالفعل ، و فداه الله بكبش من السماء ، أما

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/٣٧٥ .

(٢) سبل الهدى و الرشاد ٢/٩٠ بتصرف .

(٣) سورة الصافات آية (١٠٧).

في شق الصدر ، فحدث حقيقة بالفعل ، و دل عليه الكتاب و السنة ، و رأو أثر المخيط في صدره الشريف .

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله يا كاملاً في صفاتك، عالياً في أخلاقك.

و من الحكم في شق صدره الشريف ﷺ الزيادة في قوة اليقين ، لأنه أعطى برؤية شق بطنه و عدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية فلذلك كان ﷺ أشجع الناس حالاً و مقالاً ، و لذلك وصف بقوله ﷻ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغَى ﴾ [١] .

و قد قيل في الحكمة في تكرار الشق :

أن الشق الأول ؛ كان في زمن الطفولة لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان .

ثم لما كان العشر قريباً من سن التكليف ، شق صدره و قدس ، حتى لا يلتبس بشيء مما يعاب على الرجال .

ثم عند المبعث زيادة في الكرامة ، لتلقي ما يُلْقَى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير .

ثم وقع عند إرادة العروج ليتأهب للمناجاة[٢] .

و هكذا تكررت نعمة شق صدره الشريف ﷺ أربع مرات ، تواليا لنعم الله عليه ، و إكراما له ، و تثبيتاً و يقينا ، و فيضا من فيوضات الرحمن التي لا تنضب .

فسبحانك يا أعظم الأعظمين ، و ياأكرم الأكرمين ، و يا معزاً لمن أردت له العزة ، و رافعاً لمن أردت له الرفعة ، أفض علينا من كرمك ، و أعزنا بجنتك ، و ارفعنا لنرى وجهك الكريم ، فننعم بالسعادة التي لا سعادة بعدها ، آمين آمين .

---

(١) سورة النجم آية (١٧) .

(٢) سبل الهدى ٢/٩١ بتصرف .

عَلامَ يدل شق صدر النبي ﷺ و تكراره ؟

تكرر شق صدره الشريف ﷺ أربع مرات ، و ذلك إن دَلَّ على شيء ؛ فإنما يدل على تعهد الله ﷻ نبيه ﷺ عن مزالق الطبع الإنساني ، و وساوس الشيطان ، فهو حصانة للنبي الكريم التي أضفاها الله عليه .

و دليل على حب الله الشديد لرسوله الذي اصطفاه على البشر لرسالته ، و ذلك أن المولى ﷻ قد شاءت إرادته منذ الأزل ، أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين المرسلين ، فأراد الله أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل ، الذي يسير نحو الكمال ، بطهارة القلب و تصفية النفس من أي شوائب .

و لما شب النبي ﷺ في مكة المكرمة ، التي كانت تموج بمختلف أنواع الفساد و المجون ، و التي كانت تنتشر في المجتمع الجاهلي آنذاك .

عصم الله نبيه من كل ذلك[1] ليظل طاهراً نقياً منذ ولادته إلى وفاته ، فلم تزل قدمه مرةً لِمَا لا يرضي الله عنه .

فالله ﷻ برأ رسوله و اختاره من أكرم معادن الإنسانية ، ثم اختاره لحمل أكمل الرسالات و خاتمتها إلى الأرض .

فكانت حياته ﷺ زكية طاهرة من الآثام التي تدنس الشباب في مجتمعاتهم ، بعيدة عن الشر ، لم يسجد لصنم قط ، بعيداً عن معايب الجاهلية و مفاسدها . كما أثبتت ذلك كتب السير و التاريخ . فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ، يا أطهر الخلق، و أكمل البشر صلاة دائمة إلى يوم الدين .

---

(١) هامش دلائل النبوة للبيهقي ١٣٦/١ بتصرف و اختصار .

الباب الرابع

الحكمة من الغسل

و يشمل فصلين :

الفصل الأول : الحكمة من غسل قلبه بماء زمزم.

الفصل الثاني : الحكمة من غسل قلبه بالثلج و البرد .

الحكمة من الغسل

تكرر شق صدر النبي ﷺ أربع مرات ، و في كل مرة كان جبريل عليه السلام يغسل قلبه ، مبالغة في تطهيره ، و قد غسل قلبه ﷺ و هو صغير السن و أخرجت منه العلقة إعظاما و تأهبا لما يلقى هناك في المعراج ، و قد جرت الحكمة بذلك في غير موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متوضئاً ؛ لأن الوضوء في حقه ؛ إنما هو إعظام و تأهب للوقوف بين يدي الله ﷻ و مناجاته.

و كذلك أيضا الزيادة على الواحدة و الثنتين ،إذا أسبغ بالأولى ، لأن الإجزاء قد حصل و بقي ما بعد الإسباغ إلى الثلاث و كذلك غسل الباطن هنا، و قد قال ﷻ ﴿ وَ مَنْ يُعَظِّم شَعَائِر الله فَإنَها مِنْ تَقوىَ القُلُوب ﴾[1] .

فكان الغسل له ﷺ من هذا القبيل و إشارة لأمته بالفعل بتعظيم الشعائر .

و قد قيل : سُنَّ لداخل الحرم الشريف الغُسل، فما ظنك بداخل الحضرة المقدسة ؟!

فلما كان الحرم الشريف من عالم الملك ، و هو ظاهر الكائنات أنيط الغسل له بظاهر البدن في عالم المعاملات ، و لما كانت الحضرة القدسية من عالم الملكوت ، و هو باطن الكائنات أنيط الغسل بباطن البدن في التحقيقات ، و قد عرج به ﷺ لتُفْرَضْ عليه الصلاة ، و ليصلي بملائكة السماوات ، و من شأن الصلاة ، الطهور فقدس ظاهراً و باطناً [2].

و يتضح بذلك السبب في تكرار الغسل، فلو سأل سائل، لماذا الغسل وتكراره، حيث أن النبي ﷺ خلقه نوراً متنقلا ، و في صفاء النور ما يغني عن التطهر الحسي .

و لسائل أيضا أن يقول ؛ ألم تكن المرة الأولى كافية في تطهير الباطن ، كما أنه يلزم عليه أنه بعد النبوة كان فيه شيء يحتاج إلى ذلك ، و هو منزه عن أدران البشرية ؟

فذلك للمبالغة في تطهيره ظاهراً و باطناً كالوضوء للصلاة ، فهو إعظام و تأهب للوقوف بين يدي المولى سبحانه و مناجاته .

---

(١) سورة الحج آية (٣٢) .

(٢) سبل الهدى ٢/٩٢ بتصرف .

الفصل الأول

الحكمة من غسل قلبه بماء زمزم[١] .

ماء زمزم هو أفضل المياه في الدنيا على الإطلاق، وهو ماء البئر المشهورة بجوار الكعبة، ويشرب ماؤها وينقل على الجهات المختلفة ويتبرك به.

و قد يسأل سائل فيقول: لِمَ غُسِل قلبُه بماء زمزم ولَمْ يُغْسل بماء الجنة ؟

فيجاب على سؤاله بأن يقال : لما اجتمع في زمزم من كون أصل مائها من الجنة ، ثم استقر في الأرض ، فأريد بذلك بقاء بركته ﷺ في الأرض .

و قيل : لما كان ماء زمزم أصل حياة أبيه إسماعيل ﷺ و قد ربى عليه ، و نما عليه قلبه و جسده ، و صار

هو صاحبه ، و صاحب البلدة المباركة ، ناسب أن يكون ولده الصادق المصدوق كذلك ، و لما فيه من الإشارة إلى اختصاصه بذلك بعده ، فإنه قد صارت الولاية إليه في الفتح ، فجعل السقاية للعباس و ولده و حجابة البيت لعثمان بن شيبة و عقبة إلى يوم القيامة[٢] .

و قد يكون غسل قلبه ﷺ بماء زمزم لما له من الفضائل الكثيرة منها :

ما رواه مسلم[٣] بسنده عن أبي ذر (...إنها مباركة إنها طعام طعم ... الحديث) يعني أنها تشبع شاربها كما يشبعه الطعام ، و في مسند أبي داود الطيالسي[٤] بلفظ (إنها مباركة ، و هي طعام طعم و شفاء سقم)

و من فضائلها أيضا أنها قد تكون شفاء من بعض الأمراض كالحمى

---

(١) لزمزم أسماء عديده منها : مَكْتُومة ، مَضْنُونَةُ ، شُباعَة ، سُقْيا ، الرَّوَاءُ ، رَكْضَةُ جِبْرِيل ، هزمة جِبْرِيل ، شِفَاءُ سُقْمٍ ، طَعَامُ طَعْمٍ ، حفيرة عبد المطَّلب و كافية و عافية و مباركة و عِصمة (تاج العروس ٣٢٥/١٦ و سبل الهدى ٢١٤/١).

(٢) سبل الهدى ٩٦/٢ و المعجم الوسيط بتصرف.

(٣) في صحيحه ، في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي ذر ٢٦٠/١٦ _ ٢٦٣ / ح ٢٤٧٣ مطولاً .

(٤) ٦١/٢/ح ٤٥٧ .

مثلاً ، فقد أخرج أحمد بن حنبل[١] و البخاري مختصراً[٢] بسندهما عن أبي جمرة[٣] قال : كنت أدفع الناس عن ابن عباس ، فاحتبست أياما ، فقال : ما حبسك ؟ قلت : الحمى ، قال : إن رسول الله ﷺ قال :

(إنَّ الحُمى[٤] مِنْ فيح جَهَنّم ، فَأبردوهَا بِماءِ زَمْزم)

و في لفظ البخاري عن ابن عمرو (فاطفئوها بالماء) و في هذا الحديث إعجاز نبوي ، وجهنا فيه المصطفى ﷺ لإطفاء نار الحمى بالماء ، قبل أن يدرك الأطباء هذه الحقيقة بأكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، فقد توجه الأطباء في العصر الحديث لمعالجة الحمى بالماء ، و أصبحوا يحذرون من الإفراط باستخدام الأدوية المضادة للحمى، لأنها لا تخلوا مِنْ الأضرار الجانبية (Side Effects) التي قد تكون خطيرة جداً في بعض الأحيان .

فصلى الله عليك وسلم ، يا سيدي يا رسول الله ، يا من علمك الله ، خالق الكون و البشر ، ألا يعلم مَنْ خلق ؟!!

---

(١) في مسنده ، في مسند ابن عباس ٣/١٨٨/ح ٢٦٤٩ و صحح إسناده المحقق .

(٢) في صحيحه ، كتاب الطب ، باب الحمى من فتح جهنم ١٠/١٨٦ و أخرجه البخاري أيضا عن ابن عمر و عن أسماء بنت أبي بكر و عن عائشة و عن رافع بن خديج بدون قيد زمزم .

(٣) هو نصر بن عمران الضبعي البصري أحد الأئمة الثقات روى عن ابن عباس مات سنة ١٢٧ هجرية ترجمته في (سير النبلاء ٥/٢٤٣/١٠٥ والجرح و التعديل ٨/٤٦٥).

(٤) الحُمَّى (Fever) : ارتفاع درجة حرارة البدن عن حدها الطبيعي ٣٧ ° ، و تنشأ عن أسباب عديدة و تسمى أمراضها (الحُمّيات) و هي آية من آيات الله في خلقه ، فهي ظاهرة تدل على حيوية الجسم و تآزره و تعاونه لمقاومة المرض ، و قد أشار النبي ﷺ إلى وظيفة الحمى في الدفاع عن الجسم و ذلك فيما رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب البر و الصلة و الآداب عن النعمان بن بشير ١٦/٣٧٦/ح ٢٥٨٦) بقوله ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ولهذا لا يجوز التأفف من الحمى أو سبها لما لها من الفوائد ، فهي تقوي البدن و تدعم عمل جهاز المناعة كما أنها تساهم في علاج بعض الأمراض المزمنة (الموسوعة الطبية ص ٣٨٧ – ٣٨٨ بتصرف و اختصار).

و قد يكـــون لماء زمزم خصوصية زائدة عن الماء العادي ، و ذلك لما له من البركة ، و الفضائل التي امتاز بها عن الماء العادي .

أخبر النبـــي ﷺ فـــي حـــديث أبي ذر الســـابق أنها (شفاء سقم) .

وقد تيقنت من خلال تجربتي العملية مع ماء زمزم ، من مدى معنى كلمـــات المصطفى ﷺ شفاء سقم ، فقد شاء الله لي أن أعيش في المدينـــة المنـــورة ، علـــى ساكنها أفضل الصلاة و أتم التسليم ، فحينما كان يمرض أطفالي ، و يصف الأطباء لهم دواء يحتاج لخلطه بماء ، كنت أعمد إلى خلطه بماء زمزم ، و مع أول جرعـــة منه تبدأ آثار الشفاء تظهر على الطفل ، و ما ذلك إلا لبركة هذا الماء ، و ما به من خصوصية أخبر بها النبي ﷺ ، بل إن الأعجب من ذلك أنني قابلت مريضـــة روت لي بنفسها أنه قد أجمع أهل الطب على استحالة علاجها من مرض أصاب معدتها ، و قدروا لها أياما لن تعيش سواها ، فوصف لها البعض ماء زمزم فأرسلت تطلبـــه من زائري الأراضي المقدسة حيث أنها كانت على غير دين الإسلام ، العجيب فـــي الأمر أنها و بعد جرعات متوالية من ماء زمزم وحده ، شُفِيتْ من ســـقمها لدرجـــة أدهشت الأطباء ، فلم يكن منها سوى إشهار إسلامها بعد أن تحققـــت بنفســـها مـــن صحة كلمات نبينا الأمي ﷺ و التي أخرست الأطباء في بلادها .

حقا (هو خير مـــاء على وجـــه الأرض طعام طعم و شفاء سقم) صدقت يا سيد المرسلين يا من أرسلك الله رحمة للعالمين و هداية للناس أجمعين ﷺ .

و ماء زمزم ينتفع منه الإنسان بحسب نيته فقد قال ﷺ فيما رواه عنه جابر بن عبد الله (مـــاء زمزم لما شرب له) [١] .

و مـــن فضائله أنـــه يذهب الصُداع ، و أنه يفضل مياه الأرض كلها طبا و شرعا إلى غير ذلك من فضائله الكثيرة[٢] ، لذلك غسل قلـــب المصـــطفى ﷺ بأفضل المياه و أبركها و هو ماء زمزم .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، من مسند جـــابر ٥٥٨/١١ / ح ١٤٧٨٥ و قـــال محققه : إسناده حسن .

(٢) سبل الهدى ٢١٣/١ بتصرف و اختصار .

الفصل الثاني

الحكمة من غسل قلبه بالثلج و البرد

جاء في بعض الروايات أن جبريل غسل قلبه بالثلج و البرد أيضا ، و قد يكون ذلك ؛ لما فيهما من الصفاء و عدم التكدر بالأجزاء الترابية التي هي محل الأرجاس ، و عنصر الأكدار ، فهما ما آن لم تمسهما الأيدي ، و لم يمتهنهما الاستعمال ، فإن الذي يغسل بماء زمزم و الثلج و البرد ، يكون في غاية الطهارة و النقاء .

كما أنه قد يكون إشارة إلى أن الوقت يصفو له ﷺ و لأمته و يروق بشريعته الغراء ، و سنته .

و الإشارة إلى ثلوج صدره أي انشراحه بالنصر على أعدائه ، و الظفر بهم ، و الإيذان ببرودة قلبه ، أي طمأنينته على أمته بالمغفرة لهم ، و التجاوز عن سيآتهم .

و قد يكون الله أراد أن يغسل قلبه فيما حمل من الجنة في طست ملئ حكمة و إيماناً ؛ ليعرف قلبه طيب الجنة ، و يجد حلاوتها فيكون في الدنيا أزهد، وعلى دعوة الخلق إلى الجنة أحرص .

و لأنه ﷺ كان له أعداء يتقولون عليه ، فأراد الله تعالى أن يَنْفِي عنه طبع البشرية من ضيق الصدر ، و سوء مقالات الأعداء ، فغسل قلبه عدة مرات ليورث ذلك صدره سعة ، و يفارقه الضيق كما قال تعالى ﴿ **و لَقَد نَعلَم أَنك يَضيقُ صَدرك بِمَا يَقولون** ﴾ [١] .

بحيث إذا ضرب أو شج رأسه أو كسرت رباعيته كما ثبت ذلك في غزواته ﷺ يقول (**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**) [٢] .

---

(١) سورة الحجر آية (٩٧) .

(٢) فتح الباري ٢٦٩/٢ و سبل الهدى ٩٦/٢ بتصرف و اختصار .

و قد كان النبي ﷺ يدعو في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام و قبل القراءة يقول ((**اللهم باعد بيني و بين خطاياي كما باعدت بين المشرق و المغرب ، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياي بالماء و الثلج و البرد**)) [1] .

فالثلج و البرد مطهران و ذكر الثلاثة مبالغة في التطهر ، فإن الثوب الذي يتكرر عليه ثلاثة أشياء منقيه يكون غاية النقاء .

فصلى الله عليك يا سيد ولد آدم ، يا من وهبك الله أطهر قلب في أعظم صدر في أكمل شخص ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب ما يقول بعد التكبير ٢/٢٦٥ / ح ٧٤٤ .

الباب الخامس

معنى الحكمة و الإيمان

و أثر ذلك على سيدنا محمد ﷺ

و يشمل فصلين :

الفصل الأول : معنى الحكمة والإيمان.

الفصل الثاني: أثر ذلك على سيدنا محمد ﷺ.

الفصل الأول

معنى الحكمة و الإيمان

شق صدر النبي ﷺ و ملؤه بالحكمة و الإيمان ثابت في كتب السير باتفاق ، و في كتب التفسير عند تفسير قوله ﷻ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ و كذلك في كتب الحديث الصحيحة ، فلا مجال للتشكيك فيها إلا لمنكر جاحد و هذا الشق لصدر النبي ﷺ يجوزه عقلنا أيضا ، و لننظر الآن إلى تقدم العلم و الطب و الجراحة و التخدير ، فقد صارت العمليات الجراحية للقلب تجري في غرف معقمة ، و بوسائل مختلفة ، و تقنية ماهرة ، فالجراحين اليوم استطاعوا استخراج القلب و معالجة ما به ، بل و استبداله بقلب سليم من إنسان قد مات حديثاً !! فهل يرى العقل أن ذلك يستطيعه البشر ، و يستحيل على خالق البشر !!

سبحان الله خالق الكون العظيم فهو ﷻ قادر على ذلك و أكثر منه ، و قد أكرم رسوله و زاده طهارة و نقاءً بهذا الحادث الكريم .

و يعد شق صدره الشريف ﷺ و غسله بماء زمزم و الثلج و البرد و ملأه حكمة و إيمانا .

فمعنى الإيمان يقال : أَمِنَ أَمْناً ، و أمنةً اطمأنَّ وَ لَمْ يخف ، و الإيمان في اللغة : هو التصديق ، و شرعا : التصديق بالقلب و الإقرار باللسان و العمل بالجوارح[1] لذلك لما وضع النبي ﷺ في كفة الميزان و وضعت ألف من أمته في كفة مالت به ، و قال المَلَك : لو أن أمته وزنت به لمال بهم .

فإيمان النبي محمد ﷺ لا يوازيه إيمان الأمة بأكملها .

فهو الإيمان الكامل الشامل ، وضعه الله في قلب محمد ﷺ و ملأه به ، فصار الأكمل إيمانا ، و الأشد يقينا بالله و بمعرفته ﷻ

---

(١) المعجم الوسيط ٢٨/١ و شرح النووي ٢٦/١ .

أما الحكمة فهي في اللغة : حَكَم بالأمر حُكْماً : قضى ، حَكُم : صار حكيما ، و الحِكْمَة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم .

و الحكمة : العلم و التفقه ، و في التنزيل ﴿ وَ لقَد آتَينَا لُقْمَانَ الحِكْمَة ﴾[١] .

و الحكمة : الكلام الذي يقل لفظه و يجل معناه .

و الحكمة : هي العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة ، و تهذيب النفس ، و تحقيق الحق للعمل به ، و الكف عن ضده ، و الحكيم من حاز ذلك .

و قد تطلق الحكمة على القرآن ، و هو مشتمل على ذكر ذلك كله ، و على النبوة كذلك .

قال مالك الحكمة : هي الفقه في الدين قال تعالى ﴿ يُؤتِي الحِكْمَةَ مَنْ يشاء ﴾[٢] .

و قيل : التي أحكمت مبانيها بالنقل و العقل دالة على معنى فيه دقة مصونة معانيها عن الاختلال و الخطأ و الفساد[٣] .

و في حديث النبي ﷺ المروي عن ابن عباس قال : (ضمني النبي ﷺ إلى صدره و قال ((**اللهم علمه الحكمة**)) و في رواية ((**اللهم علمه الكتاب**))[٤] .

فالحكمة هنا : الإصابة في القول ، **و قيل** : الفهم عن الله ، و قيل : ما

---

(١) سورة لقمان آية (١٢) .

(٢) سورة البقرة (آية ٢٦٩).

(٣) المعجم الوسيط ١٩٠/١ و تحفة الأحوذي ٤٥٨/١ و سبل الهدى ٩٨/٢ بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر ابن عباس ١٢٦/٧/ح ٣٧٥٦.

يشهد العقل بصحته ، و قيـــل : نور يفرق به بين الإلهام و الوسواس ، و قيـــل: سرعة الجواب بالصواب .

و جاء ذكر الحكمة أيضا و أهميتها في حديث عبد الله بن مسعود قـــال : قال النبي ﷺ ((**لا حَسَدَ إلا فِي اثنَتَين : رَجُل أتـاهُ الله مَالاً فَسَلَطَهُ عَلـى هَلَكَتـه فِـي الحَق ، و رجـل آتـاه الله الحِكْمَةَ فَهُو يَقضِي بها و يعَلِمها**)) [١] .

الحكمة هنا : القرآن ، و قيل كل ما منع من الجهـــل و زجـــر عـــن القبيح[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيـــحه ، كتـــاب العلم ، باب الاغتبـــاط في العلـــم و الحكمة ١٩٩/١ / ح ٧٣ .

(٢) فتح الباري ١٩٩/١/ح ٧٣ .

الفصل الثاني

آثار تطهير قلب المصطفى و ملؤه بالحكمة و الإيمان

نبينا محمد ﷺ اصطفاه الله و طهره ، ليكون رسوله إلى الإنس و الجن ، و حباه من وفور العقل و ذكاء اللب و قوة الحواس و فصاحة اللسان و حسن الشمائل ، إلى أن كان أعقل الناس و أذكاهم .

و قد يكون من أسباب ذلك عملية شق صدره و تطهر قلبه ثم حشوه بالإيمان و الحكمة ، فالله ﷻ

لا يفعل الشيء و يكرره عبثا ، فهو سبحانه العليم اللطيف الخبير .

فمن تأمل تدبيره ﷺ أمر بواطن الخلق ، و ظواهرهم ، و سياسة العامة و الخاصة ، مع عجيب شمائله ، و بديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم ، و قرره من الشرع دون تَعَلُّمٍ سبق ، و لا ممارسة تقدمت ، و لا مطالعة للكتب منه ، لم يشك في رجحان عقله ، و ثقوب فهمه لأول نظرة ينظرها .

و قد قال وهب بن مُنَبِّه[1] : قرأت في أحد و سبعين كتابا ، فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلا ، و أفضلهم رأيا .

و في رواية عنه أيضا فوجدت في جميعها ، أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا[2] .

و قد كان النبي ﷺ ذو لسان فصيح، و قول بليغ، و كلام موجز، و لفظ ناصع، قلة تكلف ، فقد أوتي ﷺ جوامع العلم ، و خص ببدائع الحكم، وعلم

---

(١) وَهْبُ بن مُنَبِّه بن كامل بن سيج بن ذي كِبَار ، العلامة الإخباري القصصي ولد في زمن عثمان سنة ٣٤ هجرية و رحل و حج ، روايته للمسند قليلة ، و إنما غزارة علمه في الإسرائيليات ، و من صحائف أهل الكتاب ، قال العجلي : تابعي ثقة و وثقه أبو زرعة و النسائي توفي سنة ١١٠ أو ١١٤ هجرية له ترجمة في (سير النبلاء ٥٤٤/٤ / ٢١٩ و تهذيب التهذيب ١٦٦/١١).

(٢) الشفا للقاضي عياض ٩١/١ – ٩٦ بتصرف .

ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، و يحاورها بلغتها، و يباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، و تفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره، علم ذلك وتحققه.

قال القاضي عياض[١] : و أما كلامه ﷺ المعتاد ، و فصاحته المعلومة، و جوامع كلمه و حِكَمُه المأثورة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين ، و جُمِعَت في ألفاظها و معانيها الكتب – وفي زمننا هذا لنا أن نتأمل كم من طلاب العلم منح درجة العالمية (الدكتوراه) في أحاديثه ﷺ و هو نبينا الأمي – و فيها ما لا يوازي فصاحة ، و لا يبارى بلاغة .

و من ذلك قوله ﷺ عن أبي هريرة ﷺ ((**الناس معادن**))[٢].

و المعادن جمع معدن : منبت الذهب و الفضة و نحوه ، و يطلق على مكان كل شيء فيه أصله ، و يعني ﷺ بذلك أن بني آدم يختلفون باختلاف أصلهم فمن كان أصله شريفا أعقب مثله ، و سرى طيب عرقه لفرعه ، و من كان دون ذلك كان عقبة مثله ، و من كان خبيثاً كان فرعه خبيثاً .

وانظر إلى وصف أم معبد[٣] **له ﷺ قالت:** رأيت رجلا ظاهر الوضاءة،

---

(١) عياض بن موسى بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الإمام العلامة الحافظ الأوحد ولد سنة ٤٤٦ هجرية ، استبحر في العلوم ، و جمع و ألف ، و سارت بتصانيفه الركبان ، قال القاضي شمس الدين في وفيات الأعيان . هو إمام الحديث في وقته ، و أعرف الناس بعلومه ، و بالنحو و اللغة و كلام العرب و أيامهم و أنسابهم ، توفي سنة ٥٤٤ هجرية له ترجمة في (سير أعلام النبلاء ١٣٦/٢١٢/٢٠ و وفيات الأعيان ٤٨٣/٣ – ٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ لقد كان في يوسف و إخوته آيات للسائلين ﴾ ٤٨١/٦ / ح ٣٣٨٣ .

(٣) أم معبد هي: عاتكة بنت خلف بن معبد بن ربيعة بن أصرم، كانت تنزل بين مكة وجبالها، فنزل عليها النبي ﷺ و أبو بكر لما هاجرا فقدمت لهما القرى ، فلما جاء زوجها أخبرته بذلك و وصفته له (سيرة ابن كثير ٢٥٧/٢– ٢٦١ والشفا ١٠٥/١ بتصرف).

حسن الخَلْق مليح الوجه لم تعْبه ثُجْلَة[١]، و لم تزْر به صُعْلَة[٢]، قَسيم وَسيم[٣]، في عينيه دَعَجٌ[٤]، و في أشفاره وَطَفٌ[٥] و في صوته صَحَل[٦]، أكحل[٧] أزج[٨] أقرن[٩] في عنقه سطع[١٠]، و في لحيته كثاثة[١١] ، إذا صمت فعليه الوقار ، و إذا تكلم سما و علاه البهاء[١٢]، حلو المنطق فَصْلٌ لا نزْرٌ و لا هَذَر[١٣]، كأن منطقه خرزات نظم[١٤] ينحدرن ، أبهى الناس و أجمله من بعيد ، و أحسنه من قريب ، رَبْعة[١٥] لا تشنأه[١٦]عين من طول ، و لا تقتحمه عين من قصر[١٧]، غصن بين

---

(١) ثُجْلَة : ضخم البطن أي ليس بطنه عظيم (النهاية ٢٠٨/١ بتصرف) .

(٢) الصُعْلَة : صغر الرأس و هي أيضا الدقة و النحول في البدن (النهاية ٣٢/٣) .

(٣) القسامة : الحُسن ، و رَجُلٌ مُقَسَّم الوجه : أي جميل كله ، كأن كل موضع منه أخذ قسْماً من الجمال (النهاية ٦٣/٤) .

(٤) الدَّعَج و الدُّعْجَةُ : السواد في العين و غيرها ، يريد أن سواد عينيه كان شديد السواد و قيل : شدة سواد العينين في شدة بياضها .

(٥) أي في شَعْر أجفانه طُول (النهاية ٢٠٤/٥) .

(٦) صَحَل كالبُحَّة و ألا يكون حاد الصوت (النهاية ١٣/٣).

(٧) الكَحَل : سواد في أجفان العين خِلْقة (النهاية ١٥٤/٤) .

(٨) أزج : الزَّجَج : تَقَوُّس في الحاجب مع طول في طرفه و امتداد (النهاية ٢٩٦/٢) .

(٩) في صفته ﷺ (سوابغ في غير قَرَن) القرن : التقاء الحاجبين و هذا خلاف ما روت أم معبد ، فإنها قالت في صفته (أزج أقرن) أي مقرون الحاجبين ، و الأول الصحيح في صفته ﷺ (النهاية ٥٤/٤).

(١٠) أي ارتفاع و طول (النهاية ٣٦٥/٢) .

(١١) الكثاثة في اللِّحْيَة : أن تكون غيرَ رَقيقة ولا طويلة و لكن فيها كَثَافة (النهاية ١٥٢/٤).

(١٢) أي ارتفع و علا على جلسائه . و السُّموُّ : العلو (النهاية ٤٠٥/٢) .

(١٣) أي بين ظاهر يَفْصِل بين الحق و الباطل (النهاية ٤٥١/٣) .

(١٤) منطقه : ما ينطق به ، خرزات نظم : متناسقة ، لها رونق كالعقد المنظوم (النهاية ٧٩/٦ ، الشفا ١٠٥/١) .

(١٥) هو بين الطَويل و القصير يقال : رجلٌ رَبْعة و مَرْبوع (النهاية ١٩٠/٢) .

(١٦) أي لا تبغضه لفرط طوله (النهاية ٥٠٣/٢) .

(١٧) أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً له . و كل شيء ازدريته فقد اقتحمته (النهاية (النهاية ١٩/٤) .

غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، و أحسنهم قداً ، له رفقاء يحفون به ، إن قال استمعوا لقوله : " وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود لا عابس و لا مفند " .

انظر إلى وصف أم معبد له بقولها : حلو المنطق ، فصل لا نذر و لا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن ، و لا عجب من وصف أم معبد له ﷺ و استمتاعها بتلك الصفات النادرة و التي اجتمعت فيه ﷺ ، و لكن كيف لا و قد ملأ الله قلبه حكمة و إيمانا بعد أن طهره بماء زمزم المبارك !!

و قد يكون من آثار الحكمة و الإيمان التي عمر بها قلبه ﷺ ؛ إيتاؤه جوامع الكلم و هي : ما يجمع الحكم و المنافع في لفظ قليل ، و قد أخبر ﷺ بذلك عن نفسه فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع، فقال: ((**أنا محمد النبي الأمي**)) قاله ثلاث مرات ((**ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتح الكَلِم و خواتمه و جوامعه ..... الحديث**)) [١] .

فكان ﷺ أحكم الحكماء ، و أبلغ البلغاء ، ثاقب الرأي ، ذو عقل حصيف ينبعث منه العلم و المعرفة ، و يتفرع منه ثقوب الرأي و جودة الفطنة و الإصابة ، و صدق الظن و النظر للعواقب و مصالح النفس ، و مجاهدة الشهوة ، و حسن السياسة و التدبير ، و اقتناء الفضائل ، تجنب الرذائل ، فصلى الله عليك يا أطهر الخلق و أحكمهم[٢] .

و قد كان كلامه ﷺ مفصل مبين بحيث يمتاز بعضه عن بعض فلا يلتبس و لذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها

(كان كلام النبي ﷺ فصلا يفقهه كل أحد لم يكن يسرده سرداً)[٣].

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، ١٧٢/١ ، في المحقق ١٧٧/٦ ح ٦٦٠٦ ، و قد أخرجه بإسنادين أحدهما حسن و الآخر صحيح كما قال محققوه (مطولاً).

(٢) لشفا ١٣٣/١ بتصرف .

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، من مسند عائشة .

و قالـت ﷺ (أن النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لو عَدَّهُ العَادُّ لأحصاه)[١].

فلم يكن النبي ﷺ يتابع الحديـث استعجالا بعضه إثر بعض فـلا يلتـبس على المستمع ، إنما كان حديث رسول الله ﷺ فهما تفهمه القلوب ، فكان يحـدث حديثا لو عـده العـاد لأحصـاه ، أي لو عدد كلمـاته و مفرداته أو حروفـه لأطاق ذلك و بلغ آخرها ، و المـراد بذلك المبالغة في الترتيل و التفهم ، وكان ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه وإذا مَرَّ على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً[٢] . وقد يكون من آثار حشـو قلبه بالإيمان و الحكمة ، ما تُرجم في أخلاقه ﷺ ، فكان خلقه القرآن ، يغضب لغضبـه و يرضـى لرضـاه ، و لـم يكن ﷺ فاحشاً و لا متفحشاً[٣] . فلم يكن ﷺ ناطقاً بالفحش و هو : الزيادة علـى الحد في الكلام السيئ ، و المتفحش : المتكلف لذلك ، أي لم يكن له الفحش خلقا و لا مكتسباً و لا يجزي بالسيئـة السيئـة ، و لكن يعفو و يصفح ، و لم يكـن ﷺ يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهـه ، و لكـن إذا بلغـه عـن الرجـل الشيء لم يقـل : ما بال فلان يقـول ؟ و لكن يقـول : ما بال أقوام يقولونه .

فكان ﷺ حسن الخلق : يختار الفضائل يترك الرذائل.

و قد قالت السيدة عائشة ﷺ (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخـذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، و ما انتقم رسـول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها)[٤] . أي ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين من أمور الدنيا إلا اختار أسهلهما ، ما لم يكن الأسهل مقتضيـاً للإثم ، فإنه حينئذ يختـار الأشـد .

و لم ينتقـم الرسـول الكـريم ﷺ لنفسـه خاصـة – و الروايات فـي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ٦/٦٥٥/ح ٣٥٦٧.

(٢) الفتح الرباني ٢٢/٣٧ بتصرف .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ، ٦/٦٥٤/ح ٣٥٥٩ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، بـاب صـفة النبـي ﷺ ، ٦/٦٥٤/ح ٣٥٦٠.

ذلك كثيرة لا يسعنا المقام الآن لسردها – إلا أن تنتهك حرمات الله ، فيكون لله ينتقم ، فإن انتهكت حرمة الله ، كان أشد الناس غضباً ، فكان ﷺ يعفو كل العفو إلا في حقوق الله ﷻ[١] .

فصفاته النبيلة تلك ، قد تكون تولدت من حكمته التي ملأ الله قلبه ﷺ بها .

و قد يكون من نتيجة هذا الحادث الكريم و ملء قلبه حكمة و إيمانا معرفته ﷺ دائما لأفضل الأمرين و الامتثال به ، و من ذلك يقينه ﷺ بأن الآخرة أفضل من الدنيا ، فكان ﷺ يرجح كل ما يؤدي به إلى زيادة رصيده في الآخرة ، و قد أُتي بمفاتيح خزائن الأرض كلها ، فأبى أن يقبلها ، و اختار الآخرة عليها .

و لقد كان رسولنا الكريم ﷺ في أعلى درجات الزهد في الدنيا بحيث إنه لا يحب أن يبقي بيده شيء من الدنيا إلا لإنفاقه فيمن يستحقه ، و إما لإرصاده لمن له حق .

و دليل ذلك قوله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**لو كان لي مثل أُحُدٍ ذهَباً ما يسرني أن لا تمُرّ عليّ ثلاث ليال و عندي منه شيء إلا شيئاً أرصُدُه[٢] لِدَيْنٍ**)) [٣] .

---

(١) فتح الباري ٦٦٦/٦ بتصرف .

(٢) أرصده لدين : أي أعده أو أحفظه ، و فيه : تقديم وفاء الدين على صدقة التطوع ، و فيه : الحض على إنفاق المال في الحياة و الصحة و ترجيحه على إنفاقه عند الموت ، فمن خالف شيطانه و قهر نفسه إيثاراً لثواب الآخرة فاز (فتح الباري ٢٧٠/١١ – ٢٧٦ بتصرف و اختصار).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق / باب قول النبي (ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا ، ٢٦٩/١١ / ح ٦٤٤٥ و فيه أيضا عن أبي ذر مطولاً ، و في كتاب التمني ، باب تمني الخير ، و قول النبي ﷺ (لو كان لي أحد ذهبا) ٢٣١/١٣/ح ٧٢٢٨ عن أبي هريرة (من الفتح) .

ومن أحاديثه الجميلة الرائعة التي تدل على منتهى الإيمان و الحكمة المملوء بها قلب النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام قوله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه .

قال ((**ليس الغِنى عن كثرة العَرَض**[1]، **و لكنَّ الغِنى غِنَى النَّفْس**)) [2].

يعني : ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ، و لا يبالي من أين يأتيه ، فكأنه فقير لشدة حرصه ، و إنما حقيقة الغنى غنى النفس ، و هو من استغنى بما أوتي و قنع به و رضي ، و لم يحرص على الازدياد ، و لا ألح في الطلب ، فكأنه غني .

قال القرطبي : معنى الحديث إن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس ، **و بيانه** : أنه إذا استغنت نفسه ، كفت عن المطامع فعزت و عظمت و حصل لها من الحظوة و النزاهة و الشرف و المدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه ، فإنه يورطه في رذائل الأمور ، و خسائس الأفعال ، لدناءة همته و بخله ، و يكثر من يذمه من الناس و يصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير ، و أذل من كل ذليل .

و الحاصل : أن المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما رزقه الله ، و لا يحرص على الازدياد لغير حاجة و لا يلح في الطلب و لا يلحف في السؤال ، بل يرضى بما قسم الله له ، فكأنه واجد أبداً ، و المتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أعطي ، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه ، ثم إذا فاته المطلوب حزن و أسف ، فكأنه فقير من المال ، لأنه لم

---

(١) العَرَض : ما ينتفع به من متاع الدنيا ، و ما يصيبه الإنسان من حظه في الدنيا (فتح الباري ٢٧٦/١١ بتصرف) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الغنى غنى النفس ٢٧٦/١١ / ح ٦٤٤٦.

يستغن بما أعطي ، فكأنه ليس بغني ، ثم إن غنى النفس ، ينشأ عن الرضا بقضاء الله و التسليم لأمره ، علماً بأن الذي عند الله خير و أبقى ، فهو معرض عن الحرص و الطلب .

و قال الطيبي : يمكن أن يراد بغنى النفس حصول الكمالات العلمية و العملية و إلى ذلك أشار القائل : **و من ينفق الساعات في جمع ماله ❊ مخافة فقر فالذي فعل الفقر**

أي ينبغي أن ينفق أوقاته في الغنى الحقيقي ، و هو تحصيل الكمالات ، لا في جمع المال ، فإنه لا يزداد بذلك إلا فقراً .

قال ابن حجر : و هذا و إن كان يمكن أن يراد ، لكن الذي تقدم أظهر في المراد ، و إنما يحصل غنى النفس بغنى القلب بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره فيتحقق أنه المعطي المانع فيرضى بقضائه و يشكره على نعمائه و يفزع إليه في كشف ضرائه ، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى و الغنى الوارد في قوله تعالى : ﴿ **و وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى** ﴾ [١]. يتنزل على غنى النفس ، فإن الآية الكريمة مكية ، و لا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تفتح عليه خيبر و غيرها من قلة المال و الله أعلم[٢] .

هذه الأمثلة السابقة ، الدالة على إيمان النبي ﷺ و حكمته قطرة من بحر ما انطوت عليه شخصية محمد ابن عبد الله ﷺ فلو أمسكت بقلمي طوال حياتي لأكتب حول حياته ، ما استطعت إلا بالقليل القليل .

فصلا الله عليك يا من بلغت العُلا في أخلاقك ، و السماء في صفاتك .

---

(١) سورة الضحى آية (٨) .

(٢) فتح الباري ٢٧٧/١١ بتصرف.

الخاتمة و النتيجة

محمد ﷺ خير الخلق

خص الله نبيه محمداً ﷺ بفضائل و محاسن و مناقب له دون الخلق أجمعين، و ما ذلك إلا لعظم قدر هذا النبي الكريم عنده ﷻ ، فقد فضله على العباد كلهم ، و جعله خاتم الأنبياء و الرسل.، و خصه بشريف المنزلة عليهم ، و الأدلة على ذلك كثيرة ، و ما جاء في حديث شق الصدر من أن جبريل عليه السلام – استخرج علقة من قلب المصطفى – ﷺ و قال : هذا حظ الشيطان منك ، لا يدل على أفضلية سيدنا عيسى عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ ، لأن محمداً قد نزع منه ذلك المغمز ، و ملئ قلبه حكمة و إيمانا بعد أن غسله روح القدس بالثلج و البرد .

و قد قيل : إنما كان ذلك المغمز فيه لموضع الشهوة المحركة للمني و الشهوات يحضرها الشيطان لا سيما ، شهوة من ليس بمؤمن ، فكان ذلك المغمز راجعاً إلى الأب ، لا إلى الابن المطهر ﷺ (١).

و مما يدل على أفضلية سيدنا محمد ﷺ المطلقة قوله تعالى ﴿ **و إِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاق النَّبيين لَما آتيْتُكُم من كتاب وَ حكْمَة ثُمَّ جَاءَكُم رسولٌ مُصَدِّقٌ لما مَعَكُمْ لَتُؤْمنُنَّ بِه و لَتنصرُنَّهُ قال أَ أَقْرَرْتُم و أَخَذْتُم علَى ذَلكُمْ إصْري ؟ قالُوا أَقْرَرْنا قال فاشْهَدوا وَ أَنا مَعَكُم من الشَّاهدين** ﴾ (٢) .

ففي هذه الآية الكريمة خص الله نبيه محمداً ﷺ بفضل لم يؤته غيره ، فضله و ميزه به على غيره ، و هو أنه ﷻ أخذ عهداً على كل نبي بعثه من لدن آدم إلى عيسى عليه السلام أنه ، إنْ أتى الله أحدهم من كتاب و حكمة و بلغ مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به و لينصرنه ، و لا يمنعه ما هو فيه من العلم و النبوة من إتباع من بعث بعده و نصرته ، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ﷺ

---

(١) سبل الهدى ٨٨/٢ بتصرف.

(٢) سورة آل عمران آية (٨١).

و بعثــه ، و أخذ عليه العهد إذْ أدركــه ليؤمنن به .

قال علي بــن أبي طالب و ابن عمه ابن العباس ﷺ ما بعث الله نبياً مــن الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً ﷺ و هو حــي ليــؤمنن بــه و لينصرنه .

رُوِيَ عــن عــمر بــن الخطــاب ﷺ أنــه قــال فــي كــلام زكَّــى بــه النبــي ﷺ

فقال : بأبي أنت و أمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضــيلتك عنــد الله أن بعثك آخر الأنبياء ، و ذكرك في أولهم ، فقال ﷻ ﴿ **و إِذْ أَخَذْنا مِــن النبــيين مِيــثــاقــهــم و مِــنْــك و مِــنْ نــوحٍ و إِبْــراهيم و مُــوسَى و عِيسَــى بــن مَــرْيَــم و أَخَــذْنا مِنْهُم ميثاقاً غَليظاً** ﴾[1] .

و قال تعــالى ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهم عَلَى بَعْض ، مِنْهُم مِنْ كَلَّم الله و رَفَعَ بَعضَهُم دَرَجات** ﴾ [2] .

قال المفسرون : أراد بقوله ﴿ **و رفع بعضهم درجات** ﴾ محمد ﷺ لأنــه بُعث إلى الأحمر و الأسود و أحلت له

الغنائم و لم يكن للأمم السابقة ، و ظهرت على يديه المعجزات ، و لــيس أحــد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلا و قد أعطــي محمد ﷺ مثلها أي من جنسها و نوعها .

فالرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، و هو الإمام الأعظم الذي لو وُجد فــي أي عصر وحده لكان هو الواجب الطاعة ، المقدم على الأنبياء كلهــم ، و لهــذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هــو الشــفيع فــي المحشر في إتيان ربنا ﷻ لفصل القضاء بين عباده ، و هــو المقــام المحمــود الذي لا يلــيق إلا له ، و الذي يحيد منه أولو العزم من الأنبياء و المرسلين حتى

---

(١) سورة الأحزاب آية (٧) .

(٢) سورة البقرة آية (٢٥٣).

تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به[١] .

و هذا قليل من كثير من الأدلة التي تثبت فضليه نبينا ﷺ على الخلق كلهم ، فلا تدل العلقة التي نزعها جبريل على فضيلة سيدنا عيسى على نبينا محمد ﷺ ، و شق صدر النبي ﷺ إكراما له من الله و زيادة في طهارته الظاهرة و الباطنة لدليل على العناية الإلهية بشخص محمد النبي المرسل ، و حرص المولى ﷻ على أن يكون المصطفى ﷺ في أكمل الأحوال من التطهر و الكمال ، و دليل على توالي نعم الله عليه تكريما و تثبيتاً .

و شق الصدر ثابت بالأدلة النقلية من الكتاب و السنة و ثابت بالأدلة العقلية أيضا ، كما أن رؤية الصحابة لأثر المخيط في صدره من أكبر الأدلة على بنبوته ﷺ فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ، و وهبك المقام المحمود الذي وُعدته و جعلنا لك من التابعين يوم القيامة الشاربين من حوضك الساكنين الفردوس الأعلى من الجنة معك و مع النبيين و الصديقين و الشهداء .

و أخيرا أدعو الله ﷻ أن يكون هذا البحث نافعاً لكل قارئ له ، و أن يكون جهدا متواضعا بجانب جهود من سبقونا في خدمة البحث في سيرة سيد المرسلين محمد ﷺ .

الباحثة

سحر محمد محمد عزت

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٨/١ و الشفا ٦١/١ بتصرف و اختصار .

أهم المصادر و المراجع

القرآن الكريم

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للإمام الزبيدي دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع

(٢) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل و أسرار التأويل للإمام البيضاوي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٠ هجرية – ١٩٩٩ ميلادية

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير – دار التراث العربي للطباعة و النشر و التوزيع – ميدان المشهد الحسيني

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري مؤسسة قرطبة – الطبعة الثانية

(٥) تفسير الكشاف للزمخشري

(٦) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م

(٧) حلية الأولياء و طبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني

(٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي مطبعة الأنوار المحمدية – باب الخلق

(٩) دلائل النبوة للبيهقي

(١٠) سبل الهدى و الرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢ هـ – القاهرة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

(١١) السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان .

(١٢) سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي – مؤسسة الرسالة الطبعة الحادية

عشرة ١٤١٩ هجرية - ١٩٩٨ ميلادية

(١٣) سنن النسائي لإمام جلال الدين السيوطي دار القلم بيروت لبنان

(١٤) سيرة ابن هشام لأبي محمد ابن هشام دار الصحابة للتراث بطنطا

(١٥) شرح السنة لأبي محمد الحسين البغوي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٢ هجرية - ١٩٩٢ ميلادية

(١٦) شرح صحيح مسلم للإمام النووي دار القلم بيروت لبنان

(١٧) صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري نشر و توزيع دار ابن كثير دمشق بيروت - اليمامة الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

(١٨) صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج ، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البالي الحلبي

(١٩) صحيح معجزات النبي ﷺ لابن كثير ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد مكتبة الصفا - ميدان الأزهر بالقاهرة - دار البيان الحديثة الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

(٢٠) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري المسمى بالعيني على البخاري - دار الفكر

(٢١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني دار الريان للتراث - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

(٢٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن عمر الجمل - مطبعة دار إحياء الكتب العربية فيصل الحلبي

(٢٣) الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني دار الشهاب - القاهرة.

(٢٤) كتاب الجرح و التعديل للإمام الحافظ ابن أبي حاتم ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى

(٢٥) لسان العرب للعلامة أبو الفضل جمال الدين بن منظور دار صادر بيروت – للطباعة و النشر .

(٢٦) مجمع الزوائد و منبع الفوائد للهيثمي – دار الريان للتراث القاهرة ، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان

(٢٧) مستدرك الحاكم على الصحيحين دار الكتب العلمية بيروت لبنان

(٢٨) مسند أحمد بن حنبل – دار الفكر العربي طبعة دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٩ م

(٢٩) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم – دار ابن كثير دمشق بيروت

(٣٠) المعجم الوسيط الطبعة الثانية قام بإخراجها د . إبراهيم أنيس و د . عبد الحليم منتصر ، عطية الصوالحي ، محمد خلف الله أحمد

(٣١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للشيخ أحمد القسطلاني دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م

(٣٢) النهاية في غريب الحديث و الأثر لبن الأثير – المكتبة العلمية بيروت

(٣٣) الموسوعة الطبية الفقهية ، تأليف د . أحمد محمد كنعان ، دار النفائس الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

(٣٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٤٧٦ – ٥٤٤ هـ ، تحقيق على محمد البجاوي ، طبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه